الباب الأول

[المقدمة]

١,١ المقدمة

مهمة القضيـــة البلاغـــية تعنى بتفصيل جيد القول والعبارة على حســـب مقتضى الحال شعراً كان أو نثراً، والنص الأدبي هو المضمـــار الذي يرتاده الفـــن البلاغـــي. والبلاغيون هم الذين يخضعون هذا النص في التمييز لمقاييس فنية تحـــكم على جودته وجمال عبارته، فلا يكون حكمـــه اعتباطياً ، ولا تقويمه كيفياً، وإنما يخلص إليه بموازين ومعايـــير تتكفل بالأصالة والإنصاف.

النص البلاغي والأدبي عبارة عن لفظ ومعنى، وهناك من البلاغيـــين من تعصب للفظ وهناك من فضّل المعنـــى، وهناك من ترك هذا وذاك، وقال بالعلاقـــة القائمـــة بين الفظ والمعنـــى وهي تعرف بالصورة البيانيـــة، وهناك من بحث (مغزى المعنـــى) أو ظلال المعنـــى في ضوء المعاني. كل ذلك من أجل تقـــويم النص الأدبي، ومقايســـة الفـــن القولـــي.

هذه الاعتبـــارات المختلفـــة كانت مجالاً خصباً لآراء علماء العروبة والإسلام في النقد فنشـــأت عنها جملـــة من المدارس النقدية والبلاغية الملتزمة حيناً، والمتطرفة حيناً آخر، والسائـــرة بين كل منها في بعض الأحيـــان.

لقد أدى هذا التنوع في الآراء ، والتعدد في وجهات النظر، إلى تنوّع وتعدّد المذاهب البلاغية النقدية القديمة والمعاصرة، وحينما نلقي نظرة فاحصة على الموضوع، ونجد النص إما خاضعاً لصورته الفنيـــة، فتناولها في

فصل قائم بذاته، وإذا كان النص مقترناً بجودة اللفظ ودقـــة المعنـــى، فتخصص له فصلاً متميزاً، وإما إذا اعتمد على مغزى المعنـــى أو ظلال المعنـــى وما توحي من معنـــى فتناوله في فصل بعنوان قضية المعنـــى.

فهذا البحث إذن موزّع في فصلين تمثل المظاهر الأولى للنص:

١ ــ قضية اللفظ والمعنـــى.

٢ ــ قضية مغزى المعنـــى أوظلال المعنـــى.

ولقد عرضت مناقشة للصورة في اصطلاح البلاغيين و النقاد العرب القدامى والمحدثين ونقارنها بقضية مغزى المعنـــى أو ظلال المعنـــى، وذلك من خلال آراء الغربيين من أوروبيين ومستشرقين باعتبار أنها جزء لا يتجزّأ من حضارة الأمة العربية في الوقت الذي يدرس فيه أبناء الغرب والشرق ويتلقون العلم في حواضرنا العربية في كل من القاهرة والقيروان وأشبيلية وغرناطة وبغداد والبصرة والكوفة والموصل ودمشق، وعبر العصور وخاصة في حدود القرن الخامس الهجري.

وسنعرض لقضية (اللفظ والمعنـــى) بأبعادهما المختلفة عند البلاغيين والنقاد العرب القدامى والمحدثين، وقضية (المعنـــى ومغزى المعنـــى) أو ظلال المعنـــى عند الأوروبيين. وأخيرا، سنسجل ما نجده من نتائج في الموضوع وننهي الكلام بوحدة اللفظ والمعنـــى بإطار متميز لا ينفصل، لأن الصورة البيانية لا تتألف إلا بكليهما، وكلاهما لازم وملزوم.

وسنحاول أن تقسّم هذه المحاور الثلاث على وجزاتها بالدقة والشمول والتحديد الذي سيعين على البحث الجامعي في مستقبل حياته العلمية ، وسيقربه شوطاً من الدراسات الأكاديمية المتطورة ، ولا سيما وأن هذه

المباحث هي خلاصة ما توصل إليه الفكر البلاغي النقدي عند العرب وفي أوروبا قديماً وحديثاً. فهي محاور متأصّلة يبدو لي أن العرب قد سبقوا في التوصّل إليها ، وإرساء قواعدها في ضوء القرآن الكريم.

وما توفيقي إلا بالله العلي العظيم، عليه توكلت وإليه أنيب ، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

إن مسألة اللفظ والمعنـــى من المسائل الكبرى عند النقـــاد والبلاغييـــن، فقد قامت المنازعة بينهم على أشدها في تحديد دور كل منهما (اللفظ والمعنـــى) في إعطاء النص الأدبي قيمته الفنية ، ومن ثم في تقويم شخصية كل منهما في الأفضالية والأولوية.

ولا شك أن هذه القضية تمخضت من قضية الإعجاز القرآني ، أو لفكرة الإعجاز في القرآن وارتباط الفكر النقدي والبلاغـــي بمضامينها ، باعتباره عربياً إسلامياً ، فكان النزاع محتدماً في أين يكمن الإعجاز ، في اللفظ وتأليفه ، أو المعنـــى ودلالتـــه ، أو بهما معاً ، أم بالعلاقة المتولدة بين هذا وذاك.

ويمكن حصر أبعاد هذه المعركة في أربعة فرق :

١ ـــ فريق اللفظ، ويمثله الجاحظ (ت ٢٥٥ هـــ) وأبو هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـــ).

٢ ـــ فريق اللفظ والمعنـــى، ويمثله ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـــ) ، وقدامة بن جعفر (ت ٣٣٧ هـــ).

٣ ـــ فريق لم يفصل بين اللفظ والمعنـــى، ويمثله ابن رشيق (ت ٤١٤ هـــ) وابن الأثير (ت ٦٣٧ هـــ).

٤ ـــ فريق جرد اللفظ والمعنـــى من هذه القضية في حال كونها مفردين منفردين، وقال بالعلاقة القائمة بينهما في التأليف والصياغة أو النظم كما يمثله عبد القاهر (ت ٤٧١ هـــ).

ولا بد لنا من المسير شوطاً في غمار هذه المعركة للكشف عن مراميها ، وسبر أغوارها ، لنصل بعد هذا المسير إلى الميناء الذي ترسو عليه الصورة الأدبية.

وهناك قضية أخرى تكلم عنها الغربيون من أوروبيين ومستشرقين وهي قضية مغزى المعنـــى أو ما نعرفه بمعنى المعنـــى أو ظلال المعنـــى. وهذا البحث سيكون عبارة عن دراسة مقارنة بين قضيتين: (اللفظ والمعنـــى) وقضية مغزى أو ظلال المعنـــى.

١,٢ مشكلة البحث

لم يكن من اهتمامنا مواجهة هذه إشكالية القائمة بين اللفظ والمعنـــى في علم البلاغة من منظور تأليفي يبتغي تتريل البلاغيين طوائف: لفظيين ومعنويين ومسوّين بين قطبي الدلالة؛ لأننا نحسب أن هذه المباشرة قاصرة، إذ بالإضافة إلى أنها تفترض سلفاً هذا السلّم التأليفي مما يجعل التحليل مشدوداً مبدئياً إلى هذه الفكرة، فإنها لا تحدد غالباً مقاصدها من المشكلة، ولا تضبط حقل التناول بصرامة. من هنا تكون مباشرة التصنيف تجاوزاً لكثير من الخصوصيات التي قد تدعو مراعاتها إلى إغفال كثير من شائع الآراء.

كما أنه لا يعنينا تعقب دلالة اللفظ والمعنـــى ومقاييسهما في التراث؛ ذلك أنه إذا كان من معاني "اللفظ" ما يلفظ به من الكلمات أو يتكلم به، ومن دلالات "المعنـــى"، القصد، وما يدل عليه اللفظ، فإن عنايتنا مرتبطة بعلائق اللفظ والمعنـــى ودرجات وعي أعلام التراث بمستويات هذه العلائق.

ومن منظور وجهة النظر: النقاد، والفلاسفة، والمتكلمين. فإذا كان أمر النقاد بيّناً، ونحن لا نفصل بينهم وبين البلاغيين، إذ الفصل لم يكن حاسماً في القديم، فإننا نقصد بالفلاسفة من عرفوا قديماً بهذا الوصف من خارج صفوف المتكلمين، ونريد بهم من تفقه في ما ترجم من فلسفات يونانية بالخصوص. ومثلّ هؤلاء في

علم البلاغة مساراً أرَّقه التنظير للظاهرة البلاغية، دون أن يتناسى الاهتمام بالهيئة التي يتلبسها المعنـــى، وبالكيفية التي يستحيل بها الخطاب شعراً أو خطابة.

وما دام اصطلاح المتكلمين يسع من هبّ قديماً إلى الدفاع عن العقيدة بالحجة العقلية، وكما مثَّل المعتزلة والأشاعرة طائفتا علم الكلام العظمتين في التراث ، فإن قراءتنا نتاج هؤلاء تجاوزت هذا التصنيف العقائدي، إذ شملت المقاربة معتزلة وأشاعرة معاً، كالخطابي والرماني والباقلاني والقاضي عبد الجبار وأخيراً عبد القاهر الجرجاني، ذلك أنه لم يكن من اهتمامات هذا البحث سوى استجلاء الرأي في الروابط التي يمكن أن تنضبط بها علائق عناصر النص في نظر المتكلمين جميعاً، ذلك أن المنطلقات العقائدية المختلفة لم تَحُل دون معاينة المشكلة الواحدة بمفاتيح متقاربة؛ ويكفي الإشارة هنا إلى الشبه الكبير بين القاضي عبد الجبار وعبد القاهر واعتمادهما على النحو في تحديد بنية العبارة. وقد ظهر في العصر الحديث مناقشات مختلفة في دلالة الألفاظ على المعنـــى من قبل الغربيين من مستشرقين و أوروبيين. هؤلاء الذين يتكلمون عن قضية مغزى المعنـــى وظلال المعنـــى بمناقشة طويلة.

وبالاستناد إلى ما سلف يمكننا القول إنه لم يقع بين أيدينا بحث يختص بالمقارنة بين قضية اللفظ والمعنـــى عند البلاغيين وقضية مغزى المعنـــى وظلال المعنـــى عند الغربيين حسب الاتجاهات المحددة سابقاً، ويحصر جوهر تقصى الحقائق استقصائه في العلائق التي تربط العنصرين في المستويات المختلفة، دون أن نغفل الإشارة إلى أن هناك بحوثاً بنت مشروعها بمقاربة المسألة من زاوية مغايرة كالحال مع المؤلفات التي تهتم بمقاييس الفصاحة والبلاغة للفظ والمعنـــى مثلاً، إلا أنه يمكننا الإقرار بأن مقال شكري محمد عياد: "المؤثرات الفلسفية والكلامية في النقد العربي والبلاغة العربية"، كان من البحوث التي أفدنا منها في تحديد

وجهة البحث. ثم حوى إنجاز حمادي صمود: "التفكير البلاغي عند العرب" أجوبةً لكثير من مشاغلنا المتعلقة بالجاحظ وعبد القاهر والعسكري وابن سنان، وإن كانت إفادتنا من الكتاب المذكور عظيمة في الموضوعات المشتركة بيننا وبينه، إلا أن ذلك لم يحل دون تباين آرائنا جملة من آراء الباحث، ومع ذلك سيبقى الكتاب يمثل قراءة جادة وعميقة تستضيئ بمفاتيح أسلوبية معاصرة لكثير من قضايا البلاغة في التراث.

وأخيراً لا يدعي الباحث في محاولته هذه من خلال إجراء مقارنة بين قضيتين على أن يبحث عن المقاربة بين قضيتين والفرق بينهما ، إذ مع الإقرار بشمول الطموح الذي دعاه إلى المقارنة بين قضية (اللفظ والمعنـــى) عند البلاغيين وقضية (المعنـــى و مغزى المعنـــى) أو ظلال المعنـــى عند الغربيين من قضايا بلاغية ، تظل مادة هذا التراث الثرية قابلة للقراءة المجددة ، وباعتبار أن القراءة المعاصرة تفيد في حل بعض مشكلات وقضايا بلاغية كبرى من خلال رؤية خاصة تحاول الاقتراب قدر الإمكان من جوهر الإشكال، وعسى أن تكون ناجحة في الوصول إلى الصواب.

١,٣ أسئلة البحث

١. ماذا الفرق بين قضية (اللفظ والمعنـــى) وقضية (المعنـــى والمغزى) أو ظلال المعنـــى؟

٢. ماهي التشابهات والخلافات بين القضيتين (اللفظ والمعنـــى) و (المعنـــى والمغزى)؟

٣. وهل القضية اللغوية المعاصرة (المعنـــى والمغزى) متأثرة بقضية (اللفظ والمعنـــى) القديمة عند البلاغيين القدمى؟

٤. ما هي الصلة بين علوم الأوائل والعلوم اللغوية المعاصرة ؟

١,٤ أهداف البحث

١. معرفة الفرق بين قضية (اللفظ والمعنـــى) وقضية (المعنـــى والمغزى)

٢. معرفة وجوه الاتفاق والاختلاف بين (اللفظ والمعنـــى) وقضية (المعنـــى والمغزى)

٣. تلقيح المنهج العربي القديم لقراءة النصوص بالمناهج اللغوية المعاصرة لاستثمار النصوص العربية وجعلها معاصرة لعصرنا، حتى لا تحدث القطعية مع التراث اللغوي أو فقدان النفعية من فهم التراث التراثي.

١,٥ أهمية البحث

انطلاقا من الأهداف المذكورة ، فهناك أهمية لهذا البحث يريد الباحث تحقيقها،نظرية أو تطبيقية ، وهي كما يلي:

أ- الأهمية النظرية هي:

١. أن يكون هذا البحث نافعا لجميع أفراد الأمة الذين هم يهتمون بدراسات اللغوية، وخاصة علم البلاغة والعلوم البلاغية الثلاثة ، ومنها علم المعاني على وجه الخصوص .

٢. أن يكون هذا البحث على وجه الحديد صالحا لإحياء العلوم البلاغية وقضياها وتطويرها في ضوء المناهج العلمية الحديثة .

٣. أن يعتبر هذا البحث إضافة جديدة إلى المعارف والمعلومات في خزانة العلوم الإسلامية وخاصة في مجال علم البلاغة والدلالة الذي يتناول القضيتين : (اللفظ والمعنـــى) و (مغزى المعنـــى) أو ظلال المعنـــى.

بـــ- الأهمية التطبيقية هي :

١. أن يكون هذا البحث نافعا لإحياء علوم البلاغة وقضاياها اللغوية التطبيقية .

٢. تسجيل نتائج تطبيقية من خلال مقارنة آراء العلماء في قضية (اللفظ والمعنـــى) وقضية (مغزى المعنـــى) أوظلال المعنـــى لمعرفة مدى التقارب والتشابه بينهما والخلاف .

٣. إفادة لمن يأتي مستأجلا ومستأخرا من الدارسين والباحسين لاستكمال ما ينقص منه هذا البحث من الناحية التطبيقية، بحيث لا يوجد بحث في دنيا البحوث يخلو من كل نقص.

١,٦ حدود البحث

وهذه الدراسة ينحصر في قضية (اللفظ والمعنـــى) باعتبارها إحدى قضايا لغوية مهمة في علم البلاغة وعلم الدلالة التي تتعلق بمناقشة آراء ونتائج لها صلة بالكلام والعبارة والمعنـــى وراء المعنـــى للعبارات أو الجمل.وقد دار نقاش طويل بين العلماء حسب الغرض والمطلبات للموضوع . وقسم العلماء هذه المسألة إلى قضيتين مهمتين مستقلتين. أولها قضية (اللفظ والمعنـــى) التي تكلم عنها العلماء اللغويون والبلاغيون في البلاغة والأدب وثانيها قضية (المعنـــى والمغزى) أو ما نعرف بظلال المعنـــى التي تكلم عنها علماء علم الدلالة.

والدراسة مركوزة في مقارنة آراء علماء اللغة قديما وحديثا في هذين قضيتي (اللفظ والمعنـــى) عند العرب و (المعنـــى والمغزى) عند الغرب. والباحث لم يأخذ بشكل شامل عن هاتين قضيتين ، وإنما درسها من ناحية بعض وجوه الاتفاق والاختلاف بين قضيتين، وذلك من خلال دراسة الآراء المنقولة من الكتاب والنقاد سواء كانوا من العرب أو من الغرب.

١,٧ منهجية البحث

ينحصر هذا البحث في قضية (اللفظ والمعنـــى) عند النقاد العرب وآراء النقاد الغربيين في قضية (المعنـــى والمغزى)، ثم نقارن الجهود التي بذلت في هذه القضية عند العرب والمناهج العلمية الحديثة التي ظهرت عند الكتاب والنقاد الغربيين في هذا المضمار.

وهذا البحث سيكون دراسة تحليلية وصفية قائمة حسب المنهج العربي المستخدم في الجامعات العربية في العالم العربي على أن يكون مقارنة الآراء الأعلام من اللغويين البلاغيين و المستشرقين الغربيين حول قضيتي (اللفظ والمعنـــى) و(المعنـــى والمغزى) أو ظلال المعنـــى. وسيعرض الباحث الأمور متعلقة بالقضيتين مع بيان آراء العلماء المحدثين فيهما.

ومن خلال هذه المنهجية يحاول الباحث أن يحلل الآراء الواردة في قضية (اللفظ والمعنـــى) عند العرب أولا ثم يتناول الباحث آراء الكتاب والنقاد الغربيين في قضية (المعنـــى والمغزى) محللا ومبينا الفروق الجوهرية بين قضية (اللفظ والمعنـــى) عند العرب وقضية (المعنـــى والمغزى) عند الغرب وذلك لمعرفة صلة التأثير والتأثر بينهما؟

وقد خرج البحث إلى خمسة فصول وهي كما يلي :

الفصل الأول : المقدمة

الفصل الثاني : قضية (اللفظ والمعنــــى) عند اللغويين البلاغيين والنقاد العرب

الفصل الثالث : قضية (المعنــــى والمغزى) عند الكتاب والنقاد الغربيين

الفصل الرابع : المقارنة بين قضية (اللفظ والمعنــــى) عند اللغويين البلاغيين العرب وقضية (المعنــــى والمغزى) عند الكتاب والنقاد في الغرب .

أ-آراء البلاغيين العرب في قضية (اللفظ والمعنــــى)

ب_آراء النقاد الغرب في قضية (المعنــــى والمغزى)

ج- الفروق الجوهرية بين قضيتي (اللفظ والمعنــــى) و(المعنــــى والمغزى)

الفصل الخامس : عبارة عن خاتمة أو تسجيل خلاصة البحث ، وما هو الجديد في هذا الموضوع . ثم تليها قائمة المراجع والمحتويات .

١,٨ الدراسات السابقة

قضية اللفظ والمعنـــى

ولستُ أول من سار هذا الاتجاه ، وإنما فيه من سلف أناروا لي الطريق ، فإن الفضل يرجع إليهم ممن سبق نهجه في مناقشة القضية البلاغية و علم الدلالة وفي توجيههم إياي أن أتخذ سبيلهم نبراساً أستضيء به في الدروب المظلمة ، والطرق الملتوية ، فليست البلاغة في الحقيقة إلا التذوق للأساليب الرفيعة والتغلغل إلى خبايا النفوس وكوامنها من خلال ما تفتق به ألسنة العلماء الموهوبين والكتّاب الموفقين من الجواهر والدرر، ولا يحصل هذا المطلوب إلا بعد جدّ وكدّ .

وهناك رسائل علمية عديدة تناولت المسائل البلاغية ودلالة المعنـــى للتطبيق على نص من النصوص ، وهي ثمرة من ثمرات الجامعات المنتشرة في البلاد العربية والإسلامية وغيرها.

لقد أشار الجاحظ (١٩٣٨ م :١٣١/٣ ــ ١٣٢) في كتابه الحيوان وهو أول من ألقح شرارة قضية الفظ والمعنـــى مفضلا على الألفاظ أكثر من المعنـــى بقوله (المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والقروي ، والبدوي والقروي ، إنما الشأن في إقامة الوزن ، وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج ، وفي صحة الطبع وجودة السبك). وتلك العبارة تدل على تعلقاً منه بمذهب الصيغة ، وتعصباً للفظ ، ومشايعة للصياغة سواء فيما رآه وقرره ، أو بما نقله وأقحمه من آراء العلماء والأدباء والنقاد ، وهو في كل ذلك يضع الأناقة والجودة والجمال في الألفاظ ، فالمقياس عنده للقيمة الأدبية إنما يتقوم في جزالة اللفظ ، وجودة السبك ، وحسن التركيب.

وتبعه على هذا الرأي أبو هلال العسكري ، فحذا حذوه ، وسلك منهجه حتى تقاربت الألفاظ ، وتشابهت العبارات ، فنراه في فصل يعقده لذلك ، وهو الفصل الأول من الباب الثاني من الصناعتين ، يقول :

الكلام ـــ أيدك الله ـــ يحسن بسلاسته ، وسهولته ، ونصاعته ، وتخير ألفاظه ، وإصابة معناه ، وجودة مطالعه ، وليس مقاطعه ، واستواء تقاسيمه ، وتعادل أطرافه ، وتشابه بواديه ، وموافقة أخيره فباديه ، حتى لا يكون في الألفاظ أثر ، فتجد المنظوم مثل المنثور في سهولة مطلعه ، وجودة مقطعه ، وحسن رصفه وتأليفه ، وكمال صوغه وتركيبه ، فإذا كان الكلام كذلك كان بالقبول حقيقاً ، وبالتحفظ خليقاً . (أبو هلال العسكري ١٩٧١ م : ٦١).

فعيار سلامة الكلام عنده تنحصر في سلامة اللفظ وسهولته ونصاعته ، وجودة مطالعه ، ورقة مقاطعه ، وتشابه أطرافه ، وما نسجه على هذا المنوال وفي هذا الهدف ، أما إصابة المعنـــى (فليس يطلب من المعنـــى إلا أن يكون صوابا) (أبو هلال العسكري ١٩٧١ م : ٦٤).

ثم يعزز رأيه بشواهد وأمثلة يختارها تعنى بالصياغة اللفظية ، تاركاً وراءه المعاني ، عازفاً عن قبولها قبولاً حسناً ، فهي مبتذلة يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي ـــ كما عبر عن ذلك الجاحظ بالنص. فالعسكري معني بالهيكل وأناقته ، ومفتتن بالألفاظ وإطارها باعتبارها الوسائل التي يتفاضل بحسن اختيارها الأدباء ، وهو يحكي ما قرره الجاحظ ويتناوله بالكشف والإيضاح ، ولا جديد عنده عليه ، فهما إذن يصدران عن قاعدة واحدة تشكل هذا الرأي الخاص ، ولعل مرد هذا الرأي في تعصبهما الظاهر للفظ إنما يرجع إلى دوافع نفسية وسياسية وعصبية قبلية ، وإن صح هذا فهذه الدوافع لا تشكل حكماً علمياً مجرداً ، ولنقف عندها قليلاً :

أ ــ الدافع النفسي : لا شك أن اللفظ الرقيق ، والجرس الناغم ، والتركيب الناصع ، مظاهر تسيطر على النفوس فتنجذب نحوها انجذاباً ، وجزالة الأسلوب تهيمن على القلوب فتبهر بها وتنساق إليها ، سيراً وراء هذا المظهر البراق ، ولعل الجاحظ والعسكري قد افتتنا بهذا فسيطر عليهما نفسياً ، حتى عاد ذلك قناعة ورأياً ، فكانت أراؤهما تعبيراً عما يعتقدان.

ب ــ الدافع السياسي : كانت السلطة الزمنية في الفترة ما بين عصري الجاحظ والعسكري فترة مزدهرة بالترجمة والتأليف والكتابة وصولة البيان ، وكان الخط السياسي معنياً بتقييم الكتاب ، فعليهم تقوم أركان الدولة ، وبهم ينهض مجد الحكم ، ومنهم يخرج عطاء الناس ، وبهم تتفاخر الأمراء والوزراء والولاة ، والكتاب إنما يتميزون بالأداة الصالحة والمهارة الفنية ، وهما يستقيمان باللفظ والتحكم فيه ، وإخضاع تلك المهارة لأغراض الدولة ومتطلبات السلطان ، وليست أغراض الدولة أغراضاً علمية فتحتاج إلى عميق المعاني وموضوعية البيان ، وإنما هي أغراض سياسية تحققها قعقعة الألفاظ وزبرجة الهياكل ، فإذا أضفنا إلى هذا مكانة الجاحظ وشخصية العسكري وما يقتضي مركزهما من التريث والتدبر حفاظاً على النفس ، وقضاء للمصالح ، فما المانع أن يندفعا هذا الاندفاع إرضاء لأولئك الكتاب ، أو حذراً من ولاة الأمور ، ولكن هذا التعليل يقضي بأن الجاحظ والعسكري وأنصارهما قد تجاهلوا كيانهم الحضاري ومجدهم العلمي ، وفرطوا بذوقهم الأدبي وتراثهم العقلي راغبين أو راهبين.

ج ــ الدافع القومي : ومرده في إعطاء هذا الرأي وبخاصة من قبل الجاحظ هو محاولة دحض مزاعم الشعوبيين الذين حاولوا تفضيل نصوصهم الأدبية على النصوص العربية بكثرة معانيها ، وتدفق أغراضها ،

وتعدد موضوعاتها ، فكان رد الفعل لدى النقاد العرب هو التقليل من قيمة المعاني وإعطاء القيمة للصناعة اللفظية.

وثم ذهب الفريق الثاني وفي طليعته ابن قتيبة (١٩٠٢ م: ٧. ٩) إلى القول بالجمع بين اللفظ والمعنـــى مقياساً في البلاغة ، وميزاناً للقيمة الفنية ، فرأى أن الشعر يسمو بسموهما وينخفض تبعاً لهما ، وقد قسم الشعر إلى أربعة أضراب :

١ ــ ضرب حسن لفظه وجاد معناه.

٢ ــ ضرب منه حسن لفظه وحلا ، فإذا فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنـــى.

٣ ــ ضرب منه جاد معناه ، وقصرت ألفاظه.

٤ ــ ضرب منه تأخر معناه ، وتأخر لفظه.

فاللفظ والمعنـــى عند ابن قتيبه يتعرضان معاً للجودة والقبح ، ولا مزية لأحدهما على الآخر ، ولا استئثار بالأولوية لأحد القسيمين ، فقد يكون اللفظ حسناً وكذلك المعنـــى ، وقد يتساويان في القبح ، وقد يفترقان.

ولم يعدم ابن قتيبة الموافقين له على رأيه ، وفيه من الوجاهة ما يدعمه ، فقد سار على منهاجه قدامة بن جعفر (١٩٥٦ م : ١٩٤ــ ٢١٤) في نقد الشعر وتحدث عن اللفظ والمعنـــى ، وجعلهما قسيمين في تحمل مظاهر القبح وملامح الجودة فيما أورده من آراء في عيوب الالفاظ والمعاني. وإذا وافقنا ابن قتيبة في تقرير الموضوع الأصل وهو سليم جداً ، فإننا نخالفه في طبيعة فهمه ، وتطبيق الحكم على النماذج التي أختارها دليلاً على صحة دعواه. ولا سيما في الضرب الثاني الذي حسن لفظه وقصر معناه ، ثم يعقب عليها

ناقداً ومعلقاً بقوله : (هذه الألفاظ كما ترى أحسن شيء مخارج ومطالع ومقاطع ، وإن نظرت إلى ما تحتها من المعنـــى وجدته : ولما قطعنا أيام منى ، واستلمنا الاركان ، وعالينا إبلنا الانضاء ، ومضى الناس لا ينتظر الغادي منهم الرائح ، ابتدأنا في الحديث وسارت المطي في الأبطح (ابن قتيبه ١٩٠٢ م : ٨).

فابن قتيبة ببساطة يحكم على سذاجة المعنـــى ، ويدعي في الألفاظ سلس العبارة ، وجودة المخارج ، وحسن المقاطع .

وبعد ذلك يتمثل بابن رشيق (١٩٧٢م: ١/١٢٤) فقد اعتبر اللفظ والمعنـــى شيئاً واحداً متلازماً ملازمة الروح للجسد ، فلا يمكن الفصل بينهما بحال ، قال :

(اللفظ جسم ، وروحه المعنـــى ، وارتباطه كارتباط الروح بالجسم : يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته ، فإذا سلم المعنـــى واختل بعض اللفظ كان نقصاً للشعر وهجنة عليه.. فإن اختل المعنـــى كله وفسد بقي اللفظ مواتاً لا فائدة فيه).

ويبدو لي أن هذا النوع من التعقيد والتقرير أقرب إلى القصد والاعتدال منه إلى التمحل والتعقيد ، فالصورة عند ابن رشيق لا تكون واضحة الرؤية خصبة التخطيط إلا من خلال عنايتها باللفظ لتجعله الوسيط الدال على المعنـــى المراد لأكيد الصلة ووشيج النسب بينهما كما قال إبراهيم سلامة (١٩٥٠ م :١٥١ ــ ١٥٢) لأن التفكير في اللفظ والمعنـــى تفكير جملي يفكر فيه الأديب مرة واحدة وبحركة عقلية واحدة ، فإذا رتبت المعاني في الذهن ترتيباً منطقياً ، وإذا تحددت في الفكر تحديداً يجمعه ترابط المعاني وتداعيها ، هذا الترابط وهذا التداعي الذي يرضاه المنطق أو يرضاه حسن الأديب ، انحدرت هذه المعاني على اللسان

بألفاظها الملائمة بها خطابة ، وانحدرت على القلم بألفاظها المطاوعة لها كتابة وشعراً من غير تهذيب واختيار لهذه الألفاظ).

وهذا المنهج الذي اختطه ابن رشيق تكاد تنجذب له نفوس قسم من النقاد القدامى والمعاصرين ، ففي طليعة القدماء ابن الأثير (١٩٣٩ م : ٣٥٣/١) الذي يرى أن عناية العرب بالفاظها إنما هو عناية بمعانيها ، لانها أركز عندها وأكرم عليها ، وإن كان يسوغ بل يعترف أن عناية الشعراء منصبة على الجانب اللفظي، ولكنها وسيلة لغاية محمودة وهي إبراز المعنـــى صقيلاً ، فإذا رايت العرب قد أصلحوا ألفاظهم وحسنوها، ورققوا حواشيها، وصقلوا أطرافها، فلا تظن أن العناية إذ ذاك إنما هي بألفاظ فقط، بل هي خدمة منهم للمعاني.

ولا تفسر هذه المحاولة من ابن الأثير بالاقتداء بخطوة ابن رشيق وهي وإن لم تصرح بمزج اللفظ والمعنـــى في قالب واحد ، ولكنها تشير إلى قيمة المضمون والشكل معاً في صقل الصورة ، وتلمح إلى طبيعة التلاؤم بينهما.

وقد لاقى هذا الاتجاه سيرورة وانتشاراً عند كثير من النقاد المحدثين ــ وإن لم يثبت اطلاعهم عليه ، لأنهم لا يشيرون إلى مصدره وكأنهم مبتكرون ــ فربطوا بين اللفظ والمعنـــى حتى ليخيل إليك أنهما شيء واحد ، وحدبوا على تطوير نظرتهم هذه وصعدوا بها إلى مستوى الحقائق الثابتة من خلال إشباع البحوث استدلالاً لها ، ونسجاً على منوالها ، حتى أخذت طريقها إلى مستوى النظريات والصيغ النهائية.

يرى الناقد الفرنسي دي جورمون كما أشار عنه وليم فان أوكونور (١٩٦٠م : ١٠٢) أن الأسلوب والفكر شيء واحد ، وإن من الخطأ محاولة فصل الشكل عن المادة.

وطبيعي أنه ينظر إلى الألفاظ بأنها أساليب وإلى المعاني بأنها أفكار ، ثم يخطئ القائلين بفصل تلك الألفاظ عن هذه المعاني.

ويقول حياة جاسم (١٩٧٢ م : ١٥١) بأن (دونالد استوفر) يقول باتحاد الشكل والمحتوى ، ويرى فيهما شخصية واحدة لا يمكن أن ينظر إلى أجزائها في استيعابها وتحديد النظرة الفاحصة إليها فيقول : إن القصيدة تتمتع بشخصية متماسكة حية ، وأنها وحدة تتألف من عناصر مختلفة كثيرة ، وهي متماسكة ومتوازنة ، من حيث الشكل والمحتوى بل يتداخل فيها الشكل والمحتوى على نحو لا يمكن معه تصور كل منهما على حد .

ويعتقد الناقد الأمريكي (كلينث بروكس) كما نقله محمد محمد عناني (د.ت : ١١٤) باستحالة فصل المادة عن الشكل وبالعكس في أي حال من الأحوال لأن تركيبها قد اتحد فلا يبرز إلا كلا موحداً فيقول : إن جوهر القصيدة لا يبرز إلا كلاً موحداً ، أي يستحيل علينا تجريد الجوهر وصياغته في شكل آخر ، لأن الجوهر في هذه الحالة هو المركب الجديد من بناء لا ينفصل عن موسيقاه ، والصور والدلالات المتشابكة والمواقف المعينة ، أي القصيدة ذاتها.

هكذا كانت النظرة بالنسبة للنقاد الغربيين ، فإذا استقبلنا النقاد العرب المعاصرين وجدنا الفكرة أعمق رسوخاً ، وأصلب عوداً ، والنظرة أفحص إمعاناً ، وأكثر ذيوعاً ، تارة بالاتحاد بينهما ، وأخرى بعدم الانفصال ، وثالثة بوحدة المؤدى بين الشكل والمحتوى.

يرى الأستاذ أحمد الشايب (١٩٦٨ م : ٢٤٦) بعدم إمكانية فصل القيمة الفنية بين اللفظ والمعنـــى ويرى كلاً منهما انعكاساً للآخر بسبب (شدة الارتباط بين المادة والصورة أو بين اللفظ والمعنـــى ، أو بين

الفكرة والعاطفة من ناحية ، والخيال واللفظ من ناحية ثانية ، إذ كان هذان صورة لذينك ، وأي تغيير في المادة يستتبع نظيره في الصورة والعكس صحيح).

ويرى الدكتور بدوي طبانة (١٩٥٤ م : ١٣٨ ــ ١٣٩) بأن اللفظ والمعنـــى حقيقتان متحدتان ، ومترلتهما واحدة لا تمايز بينهما ، والعناية بأحدهما عناية بالطرف الآخر ، والاهتمام يجب أن يقسم عليهما بالتساوي لأنه اهتمام بالعمل الأدبي وزنة للقيمة الفنية فيقول : (وليست مترلة المعنـــى دون مترلة اللفظ في تقدير القيمة الفنية للعمل الأدبي ، ولا شك عند المنصفين أن وجوب مراعات جانب المعنـــى لا يقل شأناً عن وجوب الاهتمام بالالفاظ).

وقد أبدى الدكتور شوقي ضيف (١٩٦٦ م: ١٦٣ ــ ١٦٥) اهتماماً كبيراً بالمسألة ، ووجه لها عنايته الفائقة ، وأعار لها الصفحات العديدة في كتابه (النقد الأدبي) وتوصل إلى أن الفصل بين اللفظ والمعنـــى ، أو الشكل والمضمون أمر مستحيل يقول: (فليس هناك محتوى وصورة ، بل هما شيء واحد ، ووحدة واحدة ، إذ تتجمع في نفس الأديب الفنان مجموعة من الأحاسيس ويأخذ تصويرها بعبارات يتم بها عمل نموذج أدبي ، وأنت لا تستطيع أن تتصور مضمون هذا النموذج أو معناه بدون قراءته ، وكذلك لا تستطيع أن تتصور صورته أو شكله أو لفظه ، دون أن تقرأه ، فهو يعبر عن الجانبين جميعاً مرة واحدة ، وليسا هما جانبين ، بل هما شيء واحد ، أو جوهر واحد ممتزج متلاحم ولا يتم نموذج فني باحدهما دون الآخر ... وإذن فلا فارق بين المعنـــى والصورة أو اللفظ في نموذج أدبي ... ومعنى ذلك أن مادة النموذج الأدبي وصورته لا تفترقان فهما كل واحد. وهو كل يتألف من خصائص جمالية مختلفة ، قد يردها النظر السريع إلى الخارج أو الشكل ، ولكننا إن أنعمنا النظر وجدناها ترد إلى الداخل والمضمون ، فهي تنطوي فيه ، أو

قل تنمو فيه ... وإذن فكل ما نلقاه في كتب البلاغة من وصف اللفظ إن تأملنا فيه وجدناه في حقيقته يرد إلى المعنـــى ، حتى الجناس وجرس الألفاظ ، فضلاً عما توصف به الكلمات من ابتذال أو غرابة. والمضمون بهذا المعنـــى يتحد مع الشكل ، فهو البناء الأدبي كله وهو الحقائق والأحاسيس النفسية الكامنة فيه).

وهذه اللقطات مما خطط له شوقي ضيف ، وعزاه إلى أصحاب الفلسفة الجمالية ، يفتح آفاقاً جديدة في مفهوم الصورة الأدبية ودلالتها ، إذ يتخطى بها الشكل إلى المضمون ، فيعتبرها وحدة متماسكة الأجزاء ، متناسقة الأعظاء. والطريف فيه أن يعود بالمحسنات البديعية وأجناس التصنيع على المعنـــى في خلق الصورة ، ويرتبط بين موسيقية اللفظ وجرس الكلمة وبين إرادة المعنـــى في بناء الهيكل الأدبي للنص. ومن هنا ـــ ويتحدد انطلاقنا مع الصورة الأدبية في أبعادها ـــ كان لزاماً علينا أن نبحث بناء القصيدة في شكلها الخارجي باعتباره الإطار التكويني لمادة القصيدة ، ومادة القصيدة باعتبارها المحتوى الذي ازدحمت ـــ نتيجة له ـــ الأشكال والرسوم الأولية لهيكل القصيدة العام الذي يتبلور به الجمال التخطيطي لها ، بغية أن تكون معالم الرؤية بينة السمات للصورة الأدبية من خلال هذا التلاحم العضوي والاتصال الفعلي بين الصيغة الظاهرية والقيم الكامنة في المعاني التي جسدت حقيقتها الألفاظ.

وقد يبدو هذا بعيداً عن مجال الصورة الأدبية ، باعتبارها الشكل الناطق والمعبر ، ولكن نظرة فاحصة لبناء القصيدة ـــ في هذا الشكل الناطق والمعبر ـــ تغني عن الأطناب ، وتكفي دلالة في التأكيد أن هذا الشكل نطق وعبر بما احتوى من مادة و لم يكن هيكلاً فارغاً عقيم الاصداء ، وإنما استقام سوياً متكاملاً بهذه العلاقة واللحمة الطبيعية بينه وبين المضمون فعاد متجاوب الأجراس.

وامر آخر يقرب من الموضوع ويتابع من خطوه ، هو أن الإيقاع الموسيقي والميزان العروضي ، ليسا من المعاني والألفاظ في شيء فهما خارجان عن هاتين الحقيقتين ، ولكنهما متداخلان معهما ، وملازمان لهما ، ولا ينعدمان في الدلالة على الصورة في القصيدة ، وإن كانا شيئاً والقصيدة في محتواها شيئاً آخر.

والحق أن إدراك هذه العلاقة بين اللفظ والمعنـــى ، واعتبارهما وحدة متجانسة في دلالتها على الصورة ، يمكن اعتباره امتداداً منطقياً لجزء مهم من رأى الفريق الرابع من فرقاء المنازعة.

وثم لاحق الفريق يتمثل في عبد القاهر الجرجاني في كتابيه (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) فقد هذب عبد القاهر من المفاهيم المرتجلة لدلالة الألفاظ والمعارف وأقامها على أصل لغوي وعلمي رصين ، وأدرك مسبقاً سر العلاقة القائمة بين اللفظ والمعنـــى ، ورفض القول بإيثار أحدهما على الآخر ، واعتبرهما بما لهما من مميزات وخصائص واسطة تكشف عن الصورة ، فقال بالنظم تارة ، وبالتأليف تارة أخرى ، مما لم يوفق إليه الفرقاء في النزاع ، والملاحظة عنده أن النظم عبارة عن العلاقة بين الالفاظ والمعاني ، وأنها تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل. (عبد القاهر الجرجاني ١٣٢١ هـــ : ٤٠)

وقد يخيل للبعض أن عبد القاهر من أنصار المعنـــى دون اللفظ نظراً لتهجمه على القائلين بأولوية اللفظ ، وليست الألفاظ عنده (إلا خدم المعاني) ، ولكن عبد القاهر يشن هذه الحملات ، ويصول ويجول في قلمه وما يضربه من أمثلة وشواهد ، وما يقرره من قواعد ، لا انتصاراً للمعنى ، وإنما هو تفنيد لآراء القوم وتدليل على مفهوم الصورة عنده بالنظم، ولا نظم في الكلم وترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ، ويبنى بعضها على بعض ، وتجعل هذه بسبب من تلك.

ويعود عبد القاهر بالنظم إلى أصل قائم على أساس من علم النحو ، وطبيعي أن النحو يعني ببناء الكلمة وإعرابها ، ومعرفة هذه الصيغة ــ وإن كانت منصبة على اللفظ ــ فإنها ترتبط بمعنى اللفظ في وضعه بمكانه من المعنـــى المراد ، لأن المعاني لا يحل إبهامها ما لم يقصد إليها من خلال الألفاظ ، والألفاظ لا يفهم مؤداها مالم تضبط صياغة وتصريفاً ونحواً بناء وإعراباً على حد سواء ، وهما متعاونان معاً على كشف العلاقة التي عبر عنها بالنظم و (ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه على النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف منهاجه التي نهجت فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء) متخذاً بالإضافة إلى هذا التشبيه والمجاز والاستعارة مضماراً لشرح آرائه ، وميداناً لاستدراكاته على أصحاب اللفظ، وأن النظر إلى هذه المقومات اللفظية بأقسامها وأنواعها لا يعود لألفاظها فحسب، وإنما للمعاني وما تضفيه على الألفاظ مما يكون حسن النظام وجوده التأليف ، وهو العلاقة المترتبة على فهم القسيمين اللفظ والمعنـــى. (عبد القاهر ١٩٤٥ :٦)

وحقاً إنك لتجد عبد لقاهر قوي الحجة، عجيب المناظرة، في جولته النقدية هذه، فلا تكاد تنتهي من فصل سفرية حتى تقع في فصل مثله، يزيدك سخرية بأولئك جرحاً وتقويماً، وإرجاعاً بآرائهم إلى ما اعتادوه دون روية وتمييز من شغف بالبديع وتعلق بالصناعة، حتى ليصعب فهم ما يقصدون من الكلام، فالسامع يخبط في عشواء ، من كثرة التكلف وشدة التمحل، وهو يقرر هذا المعنـــى بقوله : إن في كلام المتأخرين كلاماً حمل صاحبه فرط شغفه بأمور ترجع إلى ما له اسم في البديع، إلى أن ينسى أنه يتكلم ليفهم، ويقول ليبين، ويخيل إليه أنه إذا جمع بين أقسام البديع في بيت فلا ضير أن يقع ما عناه في عمياء ، وأن يوقع السامع من طلبه خبط عشواء، وربما طمس بكثرة ما يتكلفه على المعنـــى وأفسده كمن يثقل العروس بأصناف الحلي حتى ينالها من ذلك مكروه في نفسهم.

والحملة على المحسنات البديعية لا تقلل من أهمية اللفظ ، ومترلته في تقويم المعنـــى، ولكن الإغراق بأصناف البديع يجعل اللفظ فارغاً إلا من جمال الهيئة الذي قد يعود وبالاً على اللفظ، كما تعود أشتات الحلي ثقلاً على الحسناء يوردها التلف.

ومن خلال ما تقدم تتضح أبعاد المنازعة البلاغية النقدية بين اللفظ والمعنـــى، وقد تجلى فيها أن الجاحظ والعسكري معنيان بحسن الصياغة وجزالة الألفاظ وقد عللنا هذا الرأي بصدوره عن دوافع نفسية وسياسية وقومية ، انتهت بأناقة اللفظ وجرس الكلمة.

ولا حظنا بعد ذلك المقاييس البلاغية النقدية عند ابن قتيبة بإرجاعها القيمة الفنية إلى القسيمين اللفظ والمعنـــى، واتفقنا معه في أصل الحكم والموضوع وناقشنا عن صحة تطبيقه لهذا الحكم.

ووقفنا عند رأي ابن رشيق في عدم الفصل بين اللفظ والمعنـــى وتكوينهما للوحدة الفنية في أي نموذج أدبي ، وصاحبنا سيرورة هذا الرأي عند القدامى والمحدثين الغربيين والعرب ، واستأنسنا بآراء ثلاثة من البلاغيين والنقاد العرب : الشايب وطبانة وضيف ، ووقفنا مع الأخير وقفة المقوم لرأيه والقائل بتفصيله ورسمنا من خلال ذلك انطلاقنا في تحديد أبعاد القضية ، ثم عرضنا لرأي عبد القاهر ، واختتمنا الموضوع بلقطات من كلامه وشذرات من تحقيقاته، ورأينا أن له الفضل في كشف العلاقة بين اللفظ والمعنـــى بما لهما من مميزات متنافرة، وانتهينا عنده بالتعبير بالنظم وحسن التاليف عن الصورة الأدبية.

قضية مغزى وظلال المعنـــى

تكلم نصر أبو زيد (١٩٩٢م :٤٨) عن قضية مغزى في كتابه حين يتحدث عن تاريخية المعنـــى واستمرارية المغزى فقال : " إن (هيرش) يفرق بين المعنـــى والمغزى ويرى أن مغزى النص الأدبي قد يختلف، لكن معناه ثابت ، ويرى أن هناك غايتين منفصلتين تتصلان بمجالين مختلفتين.

وكتب محمد محمد يونس علي (٢٠٠٧م) كتابا كاملا باسم (المعنـــى وظلال المعنـــى) ويتكلم فيه أمور متعلقة بالمعنـــى وظلال المعنـــى كما داله الأسم على مسماه.ويقسم نطاقه إلى سبع فصول . وفي الفصل الأول يتكلم عن اللغة وما يتعلق بها ثم يتكلم عن علم الدلالة وما يتجزاء منها في الفصل الثاني. وبعد ذلك يتكلم عن علم التخاطب بكلام موجز في الفصل الثالث. وثم دخل مناقشته عن الدلالة المركزية والدلالة الهامشية بمناقشة طويلة في الفصل الرابع . والفصول الأبعة الباقية قسم الكاتب المستويات الأربعة إلى دراسة مستقلة. وهي المستوى الصوتي و المستوى التصريفي المستوى المعجمي المستوى التركيبي.

وقد تناول بول ريكور (٢٠٠٦ :٣٣) في كتابه المترجمة إلى العربية بعنوان " نظرية التأويل الخطاب وفائض المعنـــى " عن قضايا المعنـــى ومغزاه حينما يتكلم عن جدل الواقعة والمعنـــى. وهو يفصل المعنـــى إلى المغزى والإحالة.

وعرض علي توفيق الحمد (٢٠٠١ : ١) في رسالته "نحن والمستشرقين مع دراسة تحليلية لأثر المستشرقين دوزي في العجمة العربية" تعريف الاستشراق بأنهم هؤلاء الذين اتجهوا حركتهم نحو الشرق لدراسته ومعرفته لأغراض ودوافع معينة وهم من الغربيين. وذكر توفيق الحمد بعض منهم من يهتمون بدراسات العربية ، ويركز على جهودهم في دراسات العربية في مجال اللغوي.

والدكتور شفيع السيد (١٩٨٦ : ٧٥) قد تناول عن اتجاه الاسلوبي التي تكلم عن دراسة الأسلوب التى تولدت من جمع علم النفس وعلم الدلالة بوسيلة "الصورة التي كان عليها هذان العلمان في ذلك الوقت" . وهؤلاء يدرسوها مثل شأن دراسة علم البلاغة. وأشار فيها محاولة علماء علم الدلالة عن اتجاهاتهم في فهم النص بأساليب متنوعة .